كيف ننشئ جيلا جديدا من طفولتنا المشردة

خطاب حضرة الدكتور منصور بك فهمى
مدير عام دار الكتب الملكية

يبدو لى أن الحديث عن الطفولة المشردة ليس من الأحاديث التى وجدت لنفسها سبيلا فى الزمن القديم وذلك بعد أسباب اجتماعية وخلقية تتصل بنظم الجماعات ونفوس الأفراد وعاداتهم وأخلاقهم .

ففى الزمن القديم كانت الجماعات أوفى الى البساطة والى المعيشة الزراعية والتجارية والى قلة فى عدد السكان كما أن الأفراد كانوا أقل أنانية وأقل تزاحما وأكثر تراحما وأشد خضوعا لتقاليد التمدين مما يكون فى مجموعه نوعا من الوقاية حيال تشرد الأطفال ومشكلة الطفولة المشردة .

وقد يجد الباحث فى تاريخ الجماعات المتقدمة أحاديث اليتم واليتيم وقصصا لذلك رائعا حين يجد اليتيم من غير أهله لايحسنون القيام على شئونه ويتعهدونه كما يتعهدون الأبناء عن كرم وحنان ورأينا فى التواريخ أحيانا أيتاما وصلوا الى ما يمكن أن يصل اليه المرء من كمال الرجولة والمجد وكان من الأيتام عظماء بل وأنبياء، لكن التاريخ لم يصور لنا تلك المآسى المؤلمة حين يبدى طوائف من الأطفال يهيمون فى الطرقات ويستكنون فى الباحات ذرافات ذرافات ووحدانا تارة يتسولون وتارة يندفعون فى سبيل الاجرام وأخرى يساقون الى ما فيه الفضيحة للمجتمع والأخلاق .

ولعل صورة كهذه الصورة السيئة لم يبرزها الا العصر الحاضر حين تضخمت المدن وكثرت الهجرة من الأرياف وتزايد عدد السكان بكثرة المواليد . وضعفت فى النفوس أخلاق التراحم وتغلغلت فى صدور الناس أساليب التزاحم ووهدت فى الناس أخلاقهم حتى غلظت أكبادهم على فلذاتها وليس من شك أن للتشرد أسباب كثيرة ومعروفة فى مصر نذكر بعضها على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر تعدد الزوجات وفقد الآباء وضعف الأمهات الخلقى وبعض المغريات النفسية وبعض أسباب الضعف والشذوذ وغير ذلك مما ليس من عملنا أن ندخل فى تفاصيله وقد يكون من الخير أن ندرس هذه التفاصيل على قاعدة الاحصائيات الدقيقة مما قد تيسر وزارة الشئون الاجتماعية ومكاتبها المختصة مع الزمن وحسن الاستقصاء لكن الذى يعنينا حين نسلم بالأمر الواقع من وفرة المشردين أن نلقى نظرة على تحويل جيشهم الى جيل ينتفع به .

ويعدى أنه ينبغى أن يؤخذ أمر ذلك بالعنف لا باللطف وبنوع من الثورة والشدة وليس بنوع من اللين، ولعل أقدر من يأخذ الأمور بعنف هو الحاكم وصاحب السلطان وقد قيل فى المأثور: يزع الله بالسلطان مالا يزع بالقرآن، وعلى ذلك فالحكومة أولى أن تحل محل

الآباء حين لايحسن الآباء أبوتهم وهى أولى أن تحل محل الأمهات عندما لاتحسن الأمومة، فينبغى اذن أن يكون لها الولاية على الأبناء .

قد يقال إن تلك الولاية المطلقة تتنافر مع مطالب العصر فى تسويد الديموقراطية والحرية لكنى أقرر قاطعا أن لاحد به مع الشر اذا تجسم وأن لا هو مع الداء إذا تقدم وقد يكون البتر أنجع للصحة وأقرب للسلامة عندما يدعو الطبيب الى البتر فعلى الحكومة اذن أن تكثر من المؤسسات التى تخصص للطفولة البائسة المشردة فاذا أعوزها المال فهى وحدها صاحبة الحق فى أن تفرض الضرائب الكافية، ففى مال الأغنياء حق معلوم للسائل والمشرد والمحروم ، وأن الناس حتى فى صحتهم حين يشهدون آفة التشرد ومأساة المشردين ليعلنوا فى إجماع كامل رضاءهم عن كل مايمكن أن تتخذ الحكومة من ولاية ورقابة وتوجيه الأطفال ليستصلح منهم جيل نابغ مثمر .

ولعله أولى بالأطفال المشردين أن يجمعوا فى المؤسسات التى توجههم توجيها صناعيا وتهذبهم تهذيبا دينيا وكل يسير وفق استعداده ويعالج وفقا لميوله وتفوقه فى أى ناحية من نواحى التعلم أو الصناعة . .

فاذا قامت الحكومات بواجبها الأول من إكثار المؤسسات فى جميع نواحى المدن والبلاد التى تظهر فيها آفة التشرد وحينئذ يأتى دور المتطوعين والمتطوعات وذلك لأن المؤسسات وأعمال الحكومات ليس فى قدرتها أن تعالج تلك الناحية المعنوية حين يكون لهم حق للطفل أن يتمتع تمتعا فى الحنان والرحمة وحين تنزع نفسه كما هو محروم منه من نزعات الحب واللطف عندما تتقدم السيدات لتضفى الى نفس الأم الطفل الرحيمات والآنسات المحسنات حنان من لا يشعر بحنان الأمومة وحدب من لا يشعر برحمة الأخوة . و الجملة يتقدم الفاضلون والفضليات ليحوطوا الطفولة بمعانى العائلية والبيئة والتواصل ولهذا أساليب مختلفة لا ندخل فى تفاصيلها ولا نجهد الآن ليسم خططها وتوجيهاتها العملية فقد تختلف الوسائل وتتعدد لسد مؤسسات الطفولة بأسباب الحياة العائلية اللازمة لكل طفل حرمته الظروف من تلك الحياة .

و إنى حين أنشد لمشكلات التشرد وسيطة الحكومة ووازع السلطان وأتجه إلى الإصلاح عن طريق القهر والقصر فى سبيل الخير إنى لا أجهل ما يقال بين فضل وتوفيق حين تؤخذ الأمور عن سبيل التطور والرغبة والتطوع والإصلاح المتلاحق البطىء . لكنى حين أوثر الطريقة الأولى فإنى إنما أوثرها بشىء من الخبرة وعن إلحاح الضرورة حين تلح وحين يبدو إلحاحها فى سواد لا يقدر المصلحة العامة كما ينبغى أن تقدر . ومما أرويه فى صدد ذلك أنى حاولت فى قريتى الصغيرة أن أصلح بالنصيحة فيما يتعلق بنظافتها وتيسير قواعد الصحة الأولية منها فكنت أقضى الساعات والساعات بين أهلها وزعمائها لأنصح وأستخدم كل أساليب الخطابة وكلما أملك من تدليل دينى أو أدبى أو اجتماعى فكان القوم يؤمنون على قولى ،

ولكى أحملهم على العمل على تنفيذ ما يؤمنون عليه فقد رأيت بعد ذلك أن أستخدم طرقا طارئا من صداقة حاكم المركز وأن أستعين بسلطان فيما أقصد إليه من خير، فما أن بدا شيء من العنف من جانبه حتى تم لى ما أردته من إصلاح وإزالة بعض أقذار كان لها فعلها السيء فى تلك القرية البائسة .

ولقد شهدت بنفسى دعاية لوزارة الصحة ضد الأمراض المتوطنة بما ترسله من أشرطة تصور فتك هذه الأمراض ووباءها وكان القوم حول تلك الأشرطة ينظرون ويتسلون ويلهون ويفقه بعضهم شرح الشارحين لكنهم لم يغيروا عاداتهم فيما يسر لتلك الأمراض المتوطنة مرعاها . وعلى ذلك قام الدليل عندى أن الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن .

و إصلاح القرية إذن ينبغى أن يكون سبيله العنف وكذلك الإصلاح فى سبيل المشردين وخلاصة القول ينبغى أن تمهد الحكومة التربية الدينية وأن تنشل أطفال التشرد من سوء التشرد ومن تربيتهم تربية دينية مدنية خالصة إذ أنهما بالغت الحكومة أو الهيئات فى تثقيف الرؤوس وتزويدها بالعلم، فإنها لا تبلغ من القلوب وحسن السلوك مبلغ ما يؤديه الدين من خدمات وبخاصة إذا غرسنا مبادئهم وتعاليمهم وعاداتهم فى نفوس بريئة ناشئة لا ذنب لها فى تشردها إلا إهمال الآباء و إهمال المجتمع .